خطبة صلاة الجمعة 23/ 12/ 2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم الابتلاء)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا﴾ [الفجر: 15-17] قال المفسرون: (ردَّ الله على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فأخبر أن الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته). فصححت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟ قَالَ: قُلْنَا: الَّذِي لَا يَصْرَعُهُ الرِّجَالُ قَالَ: لَيْسَ بِذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»**.

وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه»**.

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالا وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضن به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه الخطبة السابعة من سلسلة خطب عنوانها: (مفاهيم تحتاج إلى تصحيح) جاءت لتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم الابتلاء**

كان سعدٌ طالباً في الصف الحادي عشر، قال له صاحبه: أترى هذه الخطوب التي تنزل ببلاد المسلمين والشدائد التي تلحق بهم، لو كانوا على الدين الصحيح لما انتقم الله منهم هذه الانتقامات ولما ابتلاهم هذه الابتلاءات.

ترى هل صحيح أن البلاء انتقام، وأن الضراء دليل على خطأ الدين والسراء دليل على صحته، ما المفهوم الصحيح للابتلاء؟!

زوجوا ابنتَهم لمهندس حافظ لكتاب الله متحلٍ بأخلاق حميدة وسيرة حسنة، وبعد العرس بأسبوع وقع له حادث سير مروع، ألقاه في السرير أربعة أشهر مع كسور متبدلة وجروح عميقة وعجز شبه دائم.

بكت الزوجة بكاءً مريراً، وراحت تعجب من نزول البلاء بزوجها مع حسن سيرته وسريرته، ولماذا يبتليه الله دون غيره.

ترى هل صحيح أن الله يبتلي هذا الزوج دون سواه، وهل صحيح أن البلاء ينزل بالعصاة دون الطائعين. ما المفهوم الصحيح للابتلاء؟!

لسلمى قريبة تعيش في رغد العيش وموفور الجمال والمال، بينما تعيش سلمى في شدة وعسرة، سمعت يوماً أن الفقر ابتلاء والغنى ابتلاء، فراحت تتمنى ابتلاء الغنى لحلاوته وتسب ابتلاء الفقر لمرارته!

ترى هل صحيح أن اختبار الغنى أسهل، وأن ابتلاء الجاه والجمال والوفرة أجمل؟!

ما المفهوم الصحيح للابتلاء؟!

أيها الإخوة:

الابتلاء في اللغة والاصطلاح: الامتحان والاختبار، وقد وردت مادة (بلو) في القرآن ستاً وثلاثين مرة. تتحدث عن سنة الابتلاء وحكمته وعن أنواعه.

أما سنة الابتلاء، فاعلموا أيها الإخوة أن الابتلاء سنَّةٌ جاريةٌ في النَّاس عامَّةً وفي المؤمنين خاصَّةً، سنة جارية في المؤمن وغير المؤمن، في الصالح والطالح، في الغني والفقير، في القوي والضعيف.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2]. فالابتلاء للإنسان عامة، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155].

فسنَّة الله الجارية في عباده عامَّةً، وفي المؤمنين خاصَّةً الابتلاء والاختبار، وهذه السُّنَّة يتبعها عقلاء الأرض وحكماؤها في معاملاتهم الأرضيَّة، فأنت لا ترقِّي موظَّفاً عندك حتَّى تختبره وتمحِّصه، كذلك لا تثق بإنسانٍ وتُقرِّبُه منك حتَّى تمتحنه وتبتليه.

ولا تمنح الجامعات والمعاهد والمدارس رُتَبها العمليَّة وإجازاتِها المهنيَّة إلَّا بعد امتحان طلابها، وكلَّما علت الشَّهادة صعُب الامتحان أكثر، وكلَّما غلت المهنة عسر الاختبار أكثر.

وأما حكمة الابتلاء: فللابتلاء والاختبار حِكَمٌ عديدةٌ:

منها **تمييز الخبيث من الطَّيب**: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:31] لأن الناس في العافية متساوون فإذا نزل البلاء تمايزوا.

ومنها **الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة**: فالابتلاء مرتبطٌ مع التَّمكين في الأرض ارتباطا وثيقاً، ولن يُمكِّن الله لأمَّةٍ حتَّى تنجح في الاختبار ولن يمكن لفرد حتى يصبر عند الابتلاء قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24].

ومنها **رفع منزلة الطائعين وتكفير سيِّئات العاصين**: أخرج الإمام البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذَىً وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**» (البخاري).

هذه سنة الابتلاء وهذه حكمته، أما أنواعه، فالابتلاء نوعان: ابتلاء بالخير والشر، وابتلاء بالأمر والنهي.

فابتلاء الخير والشر ابتلاء بالسراء والضراء، بالسرور والحزن، بالراحة والتعب، يُبتلى الإنسان بما يسره وبما يسوؤه، والناجح في الاختبار والابتلاء من كان صابرًا على الضراء، شاكرًا على السراء

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35] ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: 168].

واعلموا أيها الإخوة أن الابتلاء بالخير أشد وأثقل من الابتلاء بالشر؛ إذ الابتلاء بالشر معلوم ومشهور، أما الآخر فلا يظنه كثير من الناس ابتلاء، فهم لا يعلمون أن ما أنعم الله به عليهم من بركة في المال أو الأولاد أو الصحة، وما إلى ذلك من نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، إنما هو اختبار وامتحان من الله، فالمنعم جل وعلا يستودع هذه النعم عند أصحابها ليرى كيف يتصرفون فيها.

وقد قيل: القيام بحقوق الصَّبر أيسر من القيام بحقوق الشَّكر.

وقال سيِّدنا عمر بن الخطاب: (بُلينا بالضَّراء فصبرنا، وبُلينا بالسَّراء فلم نصبر).

وأما **ابتلاء الأمر والنهي** وهو النوع الثاني من أنواع الابتلاء وهو الأصعب ويسمى الابتلاء التشريعي، بمعنى أن الله تعالى يبتلي عباده بالأمر والنهي ليمتثلوا ما أمرهم به ويجتنبوا ما نهاهم عنه.

وبناء على كل ما سبق:

لم يصب صديقُ سعدٍ عندما ظن دينَ المسلمين غيرَ صحيح لنزول الضراء بهم، ودينَ غيرهم صحيح لنزول السراء بهم، إذ الابتلاء امتحان واختبار ترفع به درجة الطائع وتكفر به السيئات عن العاصين من المسلمين.

وليس صحيحاً ظن الزوجة بأن الله ابتلى زوجها مع صلاحه دون سواه، فالابتلاء للناس عامة وللمؤمنين خاصة ليميز الخبيث من الطيب ويكفر عنهم سيئاتهم ويمكن لهم في الأرض تمكينا.

وليت سلمى لم تتمنَّ اختبار السراء على الضراء إذ اختبار السراء أصعب وأشق من اختبار الضراء.

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور بعض الناس تصورُهم أن الابتلاء انتقام وأنه لا يصيب إلا العصاة المعاندين، وأنهم توقعوا أن تكون حياة الطائعين في رغد وفير ومال كثر.

فنتج عن هذا التصور ضجرُ قوم عند نزول الابتلاء بهم، وتزلزل عقيدةِ آخرين.

والصواب أن الابتلاء امتحان واختبار وهو سنة الله في عباده عامة وفي المؤمنين خاصة وأن لهذا الابتلاء حكماً وأنواعاً. والله أعلم

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

1- الابتلاء في اللغة والاصطلاح الامتحان والاختبار، وقد وردت مادة (بلو) في القرآن ستاً وثلاثين مرة، تتحدث عن سنة الابتلاء وحكمته وأنواعه.

2- الابتلاء سنَّةٌ جاريةٌ في النَّاس عامَّةً وفي المؤمنين خاصَّةً، ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان:2].

3- للابتلاء حِكَمٌ عديدةٌ، منها تمييز الخبيث من الطَّيب، ومنها الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة، ومنها رفع منزلة الطائعين وتكفير سِيّئات العاصين.

4- للابتلاء نوعان: ابتلاء بالخير والشر، وابتلاء بالأمر والنهي.

5- الابتلاء بالخير والسراء أشد وأثقل من الابتلاء بالشر والضراء، وأشد منهما ابتلاء الأمر والنهي.

أيها الإخوة:

التصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم الابتلاء، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين